من تقاليدنا الخالدة

سلطان الطلبة

- 1 - وصف الحفلات

إذا أقبل الربيع وابتهجت الحياة للترحيب بشبابها فاخضرت الأرض وتفتحت الأزهار على لون جذاب ورائحة تغمر النفس وصاحت الأطيار فوق الأغصان تدعو الإنسان إلى الاعتراف بقدسية جمال الطبيعة وإلى الاستمتاع ببرهة من الزمان يغفل المرء فيها عن شؤون الحياة المادية ويتجه بجميع حواسه إلى عالم يجد روحه فيه تحيا في دنيا الشعر والجمال، دنيا الخيال والمتعة التي لا تحيطها سنن مجتمع ولا تدفعها غرائز جسم ،

إذا أقبل الربيع رأينا أنفسنا مسرعي الخطى لنتربع بين أحضانه ساعات أو أياما نختلسها من أنصاب الزمان لننسى الزمان.

فبين أحضان الربيع - شباب الحياة - يجدد المرء شبابه ويغترف من بحره المتماوج ذي الشمس المشرقة والنسيم العذب خطرات هى أمتع ما في الحياة من ذكريات بل إنها الحياة وما أتعابنا في هذا الوجود إلا سعى وراء تقديس الجمال وما الربيع إلا الزهرة اليانعة الجمال.

فلتتحدث إلينا لفظة « النزهة » عن الربيع في وسطنا المغربي فهى أمتع ما في حياتنا من مظاهر وصورتها أرسخ ما في نفوسنا من أي أيام أخرى نقضيها بين حيطان المدينة طول السنة جادين أو لاهين.

فقد يمحى كل شيء من ذكرياتنا محوا تاما وتنعدم أية صلة بيننا وبين الماضي في مختلف أدوار حياتنا ولكن أيام النزهة السعيدة هى التي ترتسم في مخيلتنا وهى التي يكتب لها

الخلود ونستوحي منها جمال الأحدوثة وعاطر الذكرى، فترى الشيخ منا بعدما انزوى في زاوية من زوايا البيت وأمامه موقد النار يدفأ لا يتصل بماضيه الحافل إلا عندما يذكر لفظة « النزهة » فترى البشر على وجهه يطفح وترى دم الشباب يعاوده لينطلق في حديث شهى عن يوم من أيام الربيع مر عليه في « النزهة » مع خلانه أو بين أعضاء عائلته، بينما مغامراته في حياة المدينة توارت جميعها من ذكرياته واحتلت حيزها من العدم.

فالنزهة في وسطنا تمثال خالد للربيع الذي يتجلى بهاؤه في الأرض المغربية في أروع صورة؛ فبعد أن يمر فصل الصيف بسمومه وفصل الخريف بذبوله وفصل الشتاء بدموعه يأتي إلينا الربيع مستبشرا ضاحكا فنسارع إلى إقامة تمثاله ونختلس من أيام الزمان ما استطعنا لنسلم النفس إلى جوه المنعش ولونه السحري ويقظته الحلمية.

فلا يطلع على المغربي الربيع حتى يطلع من المدينة ليسارع إلى الحديقة أو يجلس على ضفاف الوادي وحتى ترى العائلات زرافات زرافات تقصد المنتزهات منشدة أمتع شعر ومترنمة بأعذب صوت.

تلك هى النزهة في وسطنا العائلي وبين أصدقائنا، فما هى النزهة في وسط الطلبة الحى بدم الشباب وحرارة الشباب؟ تلك هى المعجزة وتلك هى العادة الرائعة التي حفظها لنا ميراثنا الخالد فامتاز بها وسطنا المدرسي عن جميع الأوساط المدرسية في الأمم الأخرى، وتلك العادة هى ينبوع الشعر الخالد وفيض السعادة للشباب ربيع الحياة.

فأى بلاد من بلدان العالم تهتم بالربيع وبالطلبة حتى أنها تحرص على أن تقيم مهرجانا في كل سنة لتتوج من طلبة جامعتها الكبرى فتى يسارع إليه ملك البلاد ليحييه ويقدم له الهدايا مسرورا مغتبطا؟

إنها بلادنا التي تركت لنا من التقاليد ما نحن محافظون عليه ومفتخرون به ؛ إنها بلادنا التي تحرص على أن تتمتع بالربيع وتضرب عاصمتاها أعلى سهم في ذلك فتترك الأجيال

مثالا حيا لتقديس الربيع وإعزاز الطلاب.

ففي فاس الخالدة حيث يستوي الربيع في أحسن صورة وحيث يكمل بهاؤه على ضفاف وادي الجواهر وحيث الوسط الجامعي المحبوب إلى النفوس يجتمع الطلبة ليرفعوا إلى ملك البلاد ورمزها الخالد أمنيتهم في إقامة موسمهم العامر فيتفضل الملك المحبوب لإجابة رغبتهم بواسطة الصدر الأعظم رئيس وزارته فيعقدون عدة اجتماعات تمهيدية لتنظيم الحفلات وإعلان سمسرة السلطنة بين الطلاب الأفاقيين الذين يتغربون عن بلادهم وأهلهم السنين الطوال في سبيل الثقافة العلمية.

وفي أول جمعة تلي إذن جلالة الملك بعد الظهريعقد طلبة المدارس اجتماعا كبيرا بفناء جامعة القرويين الواسع، وتعلن السمسرة بصفة رسمية وتقع المزايدة بين الطلاب على نيل هذا الشرف العظيم، وتظل المزايدة يومين بعد الظهر ثم ترسو على أحد الطلاب وكثيرا ما تبلغ المزايدة 20 ألف فرنك أو أكثر، وبعد انتهاء المزايدة يعلن الطالب سلطانا للطلبة فيرجع إلى مدرسته حيث يختار من بين أصدقائه الطلبة هيأته الوزارية وحاجبه وقواد المشور وأمينا لمصروفات النزهة التي ربما تظل أسبوعين ولا يلزم في اختيار هذا الأمين أن يكون من الطلبة، بل كثيرا ما يكون من غيرهم وتجمع تلك المصروفات من المقدار المشترى بها سلطان الطلبة سلطنته وهدايا الحكومة المغربية وهدايا الهيآت الفاسية والضرائب التي يفرضها سلطان الطلبة على أعيان المدينة بواسطة اعلامات موقعة بطابعه.

ويعين سلطان الطلبة محتسبا ذا استعداد للهزل والمزح يجول في الأسواق يراقب الأسعار ويعير الموازين ويحلل المبيعات ويستحصل الضرائب والذعائر التي يتعمدها والتي يؤديها جميع التجار بارتياح كبير تنشيطا للطلبة ومشاركة منهم في نزهة الشباب الحافلة.

وفي الجمعة التالية على الساعة الحادية عشرة يغادر سلطان الطلبة مدرسته في موكب رسمي مع جميع وزرائه وحجابه ويرسل إليه السلطان فرسا مطهما وكسوة تامة ورئيس حفلات القصر وفرقة من الجند وأعوان الباشا ويقصد الموكب جامع الأندلس لصلاة

الجمعة، وبعد ذلك يقصد الموكب مدفن سيدي حرازم بباب الفتوح حيث يزوره سلطان الطلبة وأثناء سير الموكب والزيارة يبيع الطلبة التمر للمتفرجين وكثيرا ما تشترى التمرة الواحدة بأزيد من 10 فرنكات ويجمع محصل ذلك ليضاف إلى ريع الحفلة ويرجع سلطان الطلبة في موكبه عند المساء إلى مدرسته.

وفي الغد بعد صلاة الظهر يخرج موكب سلطان الطلبة المدينة مارا على سوق العطارين والطالعة ويخرج من باب محروق ويمر بين فاس الجديد وقصبة الشراردة إلى ضفاف وادي فاس حيث يكون باشا فاس الجديد قد أعد قبابا كثيرة للطلبة وواحدة لنفسه حيث يحافظ على الأمن أثناء النزهة وتختار أوسع القباب وأجملها للصلاة توضع بجانب قبة سلطان الطلبة ثم يشرع الأمين في توزيع محصل الريع على الطلبة الذين يكونون جماعة في كل قبة ويصرف السلطان من نفس ذلك الريع.

ويحلو للفاسيين أن يقضوا يوما أو يومين بين الطلبة، لذلك يسارعون إلى احتلال أمكنتهم على ضفاف النهر الجميل وينصبون قبابهم ويحملون معهم ما يلزمهم للنزهة.

ويقضي الطلبة يوم الأحد في تسلية وراحة ويوم الإثنين يخصص لاقتبال أمير من العائلة المالكة حيث يشرف الحفلة بنيابة عن ملك البلاد ويقدم هداياه المتنوعة مما يتوقف عليه الطلبة في نزهتهم من مؤونة ودراهم.

وتتوالى هدايا أرباب الحرف حيث تهدي كل حرفة ما يناسبها، وكذلك يهدي يهود المدينة هدايا متنوعة ومن السارن الأوربيين في هذا العهد يقدمون بعض الهدايا، ففي سنة من السنوات الأخيرة أهدت مثلا نقابة المحامين بفاس ساعة قيمة لسلطان الطلبة.

وتقام المخزنية في قبة سلطان الطلبة طول النهار حيث يشتغل وزراؤه بإعداد ظهائر بواسطة كتاب من الطلبة وتقام عدة مناورات هزلية للترويح عن نفوس الطلبة.

وفي اليوم السادس من الحفلة يقصد ملك البلاد نفسه في موكبه الرسمي ضفاف النهر حيث الطلبة يتمتعون بجمال الربيع فيسلم عليه سلطان الطلبة أولا ثم يقف أمامه على

فرسه والسلطان على فرسه ويحتفظ سلطان الجامعة بجميع مميزات سلطنته وهنا يمثل دور هزلي في غاية الإبداع دلالة خالدة على تقدير الشعب المغربي وملوكه الأباة للعلم ولطلبته. هنا تتجلى الديموقراطية الصحيحة وتعلن الحكومة المغربية احترامها لرجال الغد فيتنازل الملك الذي لا يجرؤ أحد على رفع صوته أمامه ليمزح مع الطلبة.

فإن الملك المغربي الذي تخضع له مملكة شاسعة الأطراف عديدة المدن كثيرة السكان لا يرى في مزح الطلبة في نزهتهم إلا متعة بريئة فهو يتنازل كل التنازل ليسمع حديثا هزليا، فإن رئيس حفلات سلطان الطلبة يتقدم من الملك الأصلي أمام الجمهور المحتشدة ويصيح بأعلى صوته في وجهه قائلا: كيف استطعت وأنت ملك المغرب العادي أن تتقدم أمام أكبر أمير على وجه الأرض الذي يتصرف في ملايين من البرغوت والذباب والنمل والضفادع وغير ذلك من الحشرات؟

فيحتج الملك الأصلي مازحا، ولكن سلطان الطلبة يرحب به ويأذن له بالإقامة في مملكته، وهنا يصعد خطيب هزله ويلقي أمام السلطانين وأمام الجماهير الغفيرة خطبتين في التنويه (بالزرود) والحمد للذي أوجدها وهيأها للمعدة.

وبعد أن تنتهي الخطبتان في موجة من المرح والهزل يطلب السلطان من سلطان الطلبة الإذن للرجوع، وهنا ينزل سلطان الطلبة عن فرسه ويقبل رجلى ملك البلاد ويقدم له مرغوبه الذي يحظى بمساعدة، وهو إما إطلاق سراح أحد المسجونين من عائلته أو نيله لوظيفة أو استثناء من جبايا، ويكتب هذا المرغوب في صورة ظهير يمضيه سلطان الطلبة.

وعندما يغادر سلطان المغرب ينعم على الطلبة بتمديد أسبوع آخر لنزهتهم. وفي آخر ليلة من النزهة يجب على سلطان الطلبة أن يغادر مكان النزهة سرا إلى مدرسته خوفا من أن يثور عليه رعاياه الطلبة هازلين مازحين حيث يصبح بعد انتهاء حفلات النزهة فردا مثلهم وذلك خوفا من أن يدور في خلده أنه نال شرفا على إخوانه الطلبة.

وحدثني صديق فاسي أنه منذ عشر سنوات مثلت شبيبة فاس رواية على مسرح عمومي،

فاعتقد الشخص الذي مثل دور الملك أنه أصبح أعلى من عامة الناس وأن بعض مصادمات جرت له تفسر لنا مغزى عادة فرار سلطان الطلبة إلى مدرسته في آخر ليلة من الحفلة حيث ينتزع عنه مظاهر الأبهة وصور الاحترام الذي تلازمه أسبوعين تامين فإنها أضرت شخصا لازمته ثلاث ساعات على مسرح فكيف يتصور الشخص الذي لازمته نصف شهر؟

- 2 - أصلها التاريخي

والآن بعد أن وصفت الحفلة وسردت خطبة من خطبها ألستم ترونها عادة رائعة يجب أن يحافظ عليها وأن نهتم بها وأن نسارع لنشاهدها، فهى صورة خالدة عن اهتمام أسلافنا بالعلم وبطلبته.

ولكن ما أصل هذه العادة الجميلة؟ وكيف نشأت؟ وما باعث لسلاطين المغرب على هذا التنازل لتصوير العلم هذه الصورة الرائعة إذ يمثل طلبته جزءا من سيادتهم ويمزحون أمامهم مزحا يتصل بذات السلطان نفسه.

إن المؤرخين المغاربة لا يعرون هذه النزهة ما جديرة به، فلم يهتموا بتسجيل نشأتها ولا بوصفها ولا بإطالة الحديث عنها مع ما هى ترمز إليه ومع أن مغزاها خالد مدى الدهر ومع أن المغرب وسلاطينه يحافظون كل المحافظة عليها، فلا يتأخرون في أية سنة عن السماح للطلبة بمتعتهم الخالدة.

وإذا استطاع المؤرخ في يوم ما أن يحدثنا عن هذه النزهة بإسهاب ويصورها أمامنا في صورة واضحة خلال عصور التاريخ فإن المؤرخ بذلك سينير حياتنا الفكرية الماضية المجهولة بعض الشيء.

فليس لدينا إلا بعض إشارات في كتب التاريخ تعيننا على فهم أسطورة تدور على أفواه

العامة عن أصل هذه النزهة ولعله من تلك الإشارات وهذه الأسطورة نستطيع أن نحيط علما بالمسألة.

ففي الأسطورة انه عندما حصلت الاضطرابات بعد أن تضعضع السعديون كان بجوار مدينة تازة يهودي يسمى ابن مشعل من الأغنياء فجار على مقاطعتها وأصبح سيدها المطلق وان نفوذه امتد إلى فاس فأرغم الفاسيين على الاعتراف بسلطته المعنوية، وذلك بإرسال هدية كل سنة هى أجمل فتاة في المدينة يضمها إلى حريمه، وفي تلك الأثناء كان من طلبة جامعتنا بفاس مولاى رشيد العلوي فلم تتحمل نفسه هذه الإهانة خصوصا وأن الفتاة التي عينت في تلك السنة لهدية اليهودي كانت شريفة من البيت العلوي، فقدم نفسه لمغامرة خطيرة فتزى بزي الفتيات وتحجب وأرسل في موضع تلك الفتاة وأرسلت معه شورتها التي هى عبارة عن أربعين طيفور في كل واحد منها طالب من رفقائه مسلحين، فرحب ابن مشعل بالفتاة على زعمه وأدخل شورتها إلى داره، وبعد أن أقفل الباب قتله مولاى الرشيد وساعده الطلبة الأربعون وبايعوه بعد ذلك.

فأراد مولاى الرشيد تخليد مبايعته وتكريم الطلبة الذين أعانوا سلطنة المغرب على الخلاص من يهودي جائر فأصدر أمره بإقامة حفلة سنوية يتوج فيها طالب من طلبة الجامعة العظمى بفاس الخالدة. وكتب التاريخ وإن كانت تجهل هذه الأسطورة بأدوارها الروائية ومفاجآتها الغرامية فهى لا تنكر أنه وجد في ذلك العهديهودي يسمى ابن مشعل عاش في منطقة تازة وأن مولاى الرشيد قضى عليه وأخذ أمواله.

وفي نشر المثاني الذي ألف حوالى سنة 1170 ما تلخيصه:

وفد مولاى الرشيد على رئيس يدعى الشيخ اللواتي، وبينما هو في ضيافته إذ رأى رجلا بهيأة من خيل وأتباع ومماليك وهو يصطاد كهيأة الملوك فسأل من هو فقيل له ابن مشعل من يهود تازة فتنحى سريعا وجعل السكين في فمه واستقبل الشيخ اللواتي فلما رآه بادر إليه قائلا: لبيك يا سيدي لا أعز عنك رقبة ولا مالا ؛ فاقترح مولاى الرشيد أن يهيأ له

خمسمائة أو نحوها من إخوانه الأبطال ليفتك باليهودي، فوعده الشيخ اللواتي ألا يتخلف واحد منهم عنك أينما توجهت فتواعد معهم أن يمروا خفية متفرقين ويلحقوا به إلى دار ابن مشعل وهى على نحو نصف مرحلة من تازة في البيداء، ثم تقدمهم إليها واستضاف اليهودي فأضافه وتبعه الأبطال فأحاطوا بالدار بعد أن أظلم الليل بحيث لم يشعر بهم أحد وبحيث يتصل بهم إن احتاجهم، واحتال حتى اتصل باليهودي في خلوته فبطش به وقتله وأدخل الرجال باحتيال صادف به مرامه فاستولى على دار اليهودي وأخذ منها أموالا كثيرة وذخائر نفيسة.

ويقول نقيب العائلة المالكة المؤرخ ابن زيدان في الدرر الفاخرة نقلا عن كتاب فتح المنان شرح قصيدة ابن الونان:

إن مولاى الرشيد هو الذي سن نزهة الطلبة الجاري العمل بها كل سنة بفاس ومراكش زمن الربيع، وذلك أنه لما فتك بابن مشعل واحتوى عل ما كان لديه من الذخائر جعل لمن كان في معيته من الطلبة نزهة فاخرة ، وقد كانوا نحو الخمسمائة ومن يومئذ اتخذت عادة سنوية مدة حياته وبعد موته.